في تبدلات وجدليات راهن مشهد الأزمة الدارفورية غربي السودان..

الاقليم بين ابادتين سياسية وعرقية

محجوب حسين *

■ قبل شهور خلت وابان توقيع اتفاق سلام دارفور في العاصمة النيجيرية «أبوجا» في الخامس من ايار (مايو) العام 2006 ، تحدثت في مقال مطول نشر على صفحات جريدة «القدس العربي» اللندنية، ان اقليم دارفور بات جزءا من السياسية العالمية لدرء الارهاب العالمي في جنوب الصحراء، وبالتالي كانت المحصلة «اتفاق سلام دارفور» الذي جاء أمريكيا ودون حوافز في العاصمة النيجيرية أبوجا بيننا في حركة / جيش تحرير السودان الموقعة على الاتفاق والحكومة السودانية، حيث تداعياتها اليوم على مستوى أصعدة عدة، أو قل «مساومة» أو «تسوية» انتجتها حسابات «المنظم» الدولي بتعاون وثيق مع الوساطة الافريقية ممثلة في دول الاتحاد الأفريقي بضمور وقصور واضحين تعكس حالات الخلل والضعف الذي يستشري في أبنية الدول الأفريقية نفسها، مع غياب عربي واسلامي ملحوظ منذ تفجر الثورة لعب فيه النظام الحاكم في السودان دورا واضحا وملموسا في توجيهه بتصورات تضليلية قائمة على مفاهيم «المؤامرة» لتجد رواقها عند العالمين العربي والاسلامي، وهي كلها عوامل مجتمعة ومنفردة غيرت في الحال والمآل في ترمومتر الأزمة وفي موازين وموازييك القوى السياسي بين الأطراف كافة. حكومة وحركات ثورية تحررية ومجتمع دولي بمؤسساته المختلفة ودول الاتحاد الافريقي ودول المحيط الاقليمي بدرجة غير مسبوقة تزداد وترتفع حدتها وفق الظرف الزمكاني لسيرورة الأحداث.

البابوية الثورية

في ذات السياق، لا أخال ان قلت ان تبدلات وجدليات مشهد الأزمة الدارفورية غربي السودان باتت خاضعة للبحث في كل شيء، فقدت معيارية التحديد والتكييف والتحكم تجاه موقعة الهدف وبلورة الاشكالية وآفاق حلولها المنتظرة أو المحتملة، لأن لاعبيها كثر، مجتمع دولي مختلف حيال تسويتها رغم المواقف المعلنة وغير المعلنة في أروقة صناعة القرار العالمي والتي غالبا ما تحركها ماكينزمات محددة الدقة، واتحاد افريقي عامل في الأرض دون فاعلية ليشكل عبئا سياسيا ثقيلا على متن الأزمة بكل جوانبها، سيما حالتي الأمن والاستقرار والموت المجاني اليومي في الاقليم الشاسع والممتد، بينما حركات المقاومة التحريرية الموقعة والمعارضة فقدت البوصلة السياسية لتعبر عن مسابقات وانتصارات أولى ضحاياها انسان الاقليم، عجزت منذ اندلاع الثورة تحديد الأس الموضوعي لجدلية الصراع، وحصرت نفسها في صراع المختلف محليا بأوجهه المتعددة فكان وما زال بعضها ذاتي والآخر منها قبائلي لتكون فريسة سياسية محترمة ومقدرة لدى المشتري في سوق النخاسة السياسية السودانية، فكانت شرعنة للشخصنة الذاتية والتقديس الجامد عند بعضها والتوهان والبحث عن أي شيء عند البعض الآخر دون توظيف جيد ملائم ومواكب للمعطيات التي تتحول عموديا وافقيا، مع سقوط كامل في مهاوي الدائرة المحلية للصراع دون انتاج أدوات أخرى تلامس معضلة الصراع الحقيقية وهو صراع تاريخ وثقافي مع «المركز» السوداني لتغيير دائرة الدورة السياسية والاقتصادية في السودان لصالح شعوب السودان الخارجة عن نظام وأنماط قيم الشعب الموجود داخل بوتقة الدولة السودانية وهو خارج دورتها فعليا منذ التاريخ الحديث أو حتى الاشتغال لكي تنتقل انتقالا تاريخيا نوعيا لبلوغ الغايات التاريخية الحاسمة في جدلية الصراع بعيدا عن «البابوية الثورية» أو المقدس الزعيم الثوري. وهي محصلة استفاد منها صانع القرار السوداني في توجيه مسار ادارة الأزمة بشكل منهجي واستراتيجي وعلمي بل كان نتاج سياساتها القائمة على الاضعاف، فيها تصدعت حركات التحرير الى أكثر من عشرة حركات فاعلة وغير فاعلة، تدعي وتؤكد وتزعم في ما بينها مرة وبينها وبين المركز مرة أخرى مع تداخل للدولي والاقليمي والمحلي والوطني بدرجات متفاوتة، رغم شراكة الهدف الكامن في الاستحقاقات لشعوب الهامش وشعب دارفور على خصوصه وهو الذي دفع فاتورة القرن الجديد بامتياز لصالح شعوب السودان المقهورة.

عقدة أوديب الدارفورية

وعلى اثر مسلسل هذا الانحدار والانزلاق التاريخي لشعب دارفور ودون توصيف أسراره ولوبياته عبر كل مراحل ادارة الأزمة عسكريا وسياسيا وتفاوضيا، كانت اتفاقية « سلام دارفور» كنتاج لما هو ممكن تاريخيا وقتئذ، وأيضا كمدخل أولي للتحرير المدني الشامل كما كنا نرى في وقت سابق، علما أن الكل «دارفوريا» شارك فيه بل ودفع اليه بوعيه أو دونه بالنظر الى وحدة الهدف والقضية والخطل الكبير في ادارة الأزمة مع الآخر الذي قلما ينظر الى الآخر المختلف دارفوريا في جوهر الصراع بأنه مختلف بقدر ما هو عدو مفترض ودائم بناء على تراكمية جدلية التاريخ في السودان حسب تصور الأبنية الموروثة في ميتاقيزيقيا المخيال الجمعي للأحادية السودانية والمستشرية دون عقد اجتماعي واقتصادي وديني وثقافي متفق عليه رضائيا بين شعبوية السودانيين .هكذا وفي ظل مكامن الضعف والعراقيل الكبيرة والمحدقة تجاه استكمال ما هو ممكن تاريخيا، ليتبين فيما بعد وبعد الدخول في انفاذ «عقدة أدويب الدارفورية» داخل السودان مع المؤتمر الوطني صاحب الجذرة الكبيرة داخل منظومة الدولة المفروضة والتي تمتهن وتجيد فنون اللعب اسلامويا حتى مع الند الشريك السابق والآخرين في منهج «شاروني» للاستسلام والخضوع والخداع الواقع تحت طائلة التبرير منفردين وجماعات بشكل مهول ومفتقر للجدية الواضحة لمناقشة جوهر الأزمة في السودان من طرف «المتعالي» السوداني، ليكون بذلك المنهج الشاروني الذي ابتدعه فلاسفة المؤتمر الوطني الحاكم ببراعة ووقع في مقصلته الكل عبارة عن حبل للاصطياد والتفكيك والتصدع امتدت حبائله لخنق كل الأجسام الموازية وشركاء الأزمة في دائرة الصراع بتسويات واتفاقات ومساومات ممتدة ولاحقة قصد الوصول الى شرعية أو شرعنة متجددة كاعادة انتاج لملكة المؤتمر السودانية عبر صناديق الاقتراع هذه المرة لاستكمال حلقة الانقلاب الأبيض المدني المرتقب في النصف الاول من العام 2008 كنتيجة حتمية متوقعة ما دامت السطوة محتكرة ونافذة وتحت المظلة والتوجيه لقيادة الحزب الحاكم ذي النهج الاقصائي في السودان وكذا أيضا وفق «شرعنة دستورية» تجد مرجعيتها في الدستور الثنائي الممنوح للشعب السوداني من طرف قوتين رئيسيتين المؤتمر حاكم دولة «الشمال» الايديولوجي الاسلامي وودولة «الجنوب» المحكوم من طرف احدى قوى التغيير في السودان الا وهي الحركة الشعبية التي لم تتضح استراتيجيتها التحالفية بشكل واضح وملموس حتى اللحظة.

وبالرجوع الى «عقدة أدويب» الدارفورية، أعني اتفاق سلام دارفور، حيث الكل مسائلا فيه وبدرجات متفاوتة من جراء الانزلاق من الهدف الواجب استحقاقه، مساءلة هي بالأساس قبائلية أقوامية كمحددات جوهرية لبنية الاقليم ذي الوعاء التقليدي وليس هو بمجتمع مدني ، حيث الولاءات التحتية ممثلة في القبيلة والعشائرية والأقوامية وما أصطلح عليه «بخشم البيوت القبلية » شعبيا كأدوات ومرجعيات وحفريات تتحكم في انتاج الفعل وارهاصاته ان كان سياسيا أو عسكريا أو اقتصاديا تحدد موازينه ثلاث قوى قبائلية رئيسية وهي قبائل الفور والزغاوة والعرب تتجاذب معها بعض القبائل الأخرى في علائق بينية قائمة على صراع الارادات وعلى توجسات وحالات من انعدام الثقة المرتكز على ما هو مستتر ومعلن وبفعل «الآخر» في سلطة المركز، لتخل في مجموعها بالبوصلة ومن ثم يجد المركز فسيفسائية الدارفوريين جاهزة وخصبة لهندسة انهيارها لفائدة البقاء والتمترس في منطلقات السودان القديم القائم والذي يوفر لهم عبر سياسية القوة المفروضة لكل الأوجه الحياتية في السودان الاستمرارية في تدوير وانبطاح الشعب السوداني حتى لا يغير سهم الطريق وهو التحرير من عبودية القرن العشرين في السودان، وكانت دائرة الغرب السوداني والغرب الاجتماعي في هذا الاتجاه وبمكوناتهما الدينية والسكانية ذات تأثير بالغ الاثر في قلب توازنات اللعبة السودانية ان لم يتم الحد من فاعليتها بل استئصالها نهائيا كمحدد تتحدد ماهيته في سلم أولويات أي «فعل» من المركز. وهي الحقيقة التي فطن اليها صانع القرار المتمرس مبكرا، ليضعها في زاوية حادة للقضاء عليها، لتتوجه بذلك كل أدوات » الاقطاعية الدوليتية » في السودان لانجاز المهمة التاريخية/ الحضارية التي قد تفقدهم «الآنا» الحاكمة في السودان مجتمعين ومنفردين حسب الظرف الزمكاني لادارة الأزمة التي تتطلب توجهات مختلفة بين الفينة والأخرى وأدوارا يقننها اللاعبون أصحاب «الشرعنة التاريخية» في السودان، فيها تفتت جبهة المقاومة التحررية وابتعدت المسارات، لتحدث ما أسميه بالانهيار الأول، ليكون الكل منفذا لسياسات مخطط المركز السوداني وبغض النظر عن ذرائعه. علما أن دائرة الصراع في جنوب السودان تختلف ماهيتها من الغرب الجغرافي والاجتماعي هذه المرة، سيما وشراكة «الاستغلال» قد فضت بين الشمال الجغرافي والغرب القائمة على كبح جماح الجنوب.لذا كان ضرب الغرب يجب أن يتم بحماقة حضارية.

الغسيل السياسي

وفي ظل هذا التداخل والتقاطع البائن في جدلية الصراع وشرعيته من جانب وفشل ادارته الجماعية من جانب ثان «ليس هناك بطل في المشهد»، وهي نقطة محط أسرار كثيرة لا داعي لاستصحابها ولا لتوثيقها لأنها ليست جزءا من أجندة هذا المقال، هذا فضلا عن العوامل الملازمة والايجابية التي ترجح الكفة حينذاك كمعامل توازن القوى السياسي والعسكري والجماهيري والانساني لصالح مشروع التحرير الكبير بالنسبة للحركات التحريرية، أتت «اتفاقية سلام دارفور» على شاكلة «مساومة دولية» بين الحكم في السودان والولايات المتحدة زائدا دول الاتحاد الاوربي والدول الأفريقية عبر الاتحاد الأفريقي، حيث الأول قراءها من منظور أن هذه المساومة المبرمجة الى حد كبير، قد تجعلها تمسك زمام المبادرة السياسية من جديد في صراعها مع المجتمع الدولي حول القوات الدولية في اقليم دارفور السوداني، وقد تكون خلاصا لها من هذا الكابوس الذي يهدد مكامن سطوتها وقوتها وفاعليتها سودانيا ودارفوريا، بينما يرى صانع القرار العالمي أن تشديد الدفع باتجاه توقيع هذه الاتفاقية وعلى علاتها قد يفتح الطريق أمام دخول القوات الدولية، وتحت ستار هذه الأجندة، أفرزت ـ أي الاتفاقية ـ وبغض النظر عن قدسية الخطاب السياسي الساري لدي جماعات ضغط أخرى متناثرة في حلبة الصراع بحجج مختلفة، أفرزتها الاتفاقية، فيها تناسلت المقاومة التحررية تحت مدلول «الحركة» الى حركات، أفرادها هم السابقون المتجددون أو المتجددون السابقون، ذات شعار واحد وتعمل بنفس الآلية السابقة، موقعة ولاحقة أو معارضة لها، كلها تعمل في عزف منفرد أهمها تسجيل الحضور، دون أن تحقق نقلة نوعية تفرضها ضرورات مرحلة الصراع والاستفادة من روزنامة الأخطاء والخطايا الماضية مع تغيب كامل لحقائق الأشياء لدى انسان هذا الاقليم الذي بدأ يتقهقر كما رأيناه وتتبعنا سير طموحه وأماله، ليقف المجتمع الدولي صاحب قوة الدفع الرباعية في انتاج وثيقة الاتفاق، متفرجا، دون الاقرار بالتزاماته السابقة، وبدأ يتعثر في توجيه الضغط بعدما فشل في دفع النظام الحاكم في السودان لتمرير ورقة القوات الدولية الكاملة بالرغم من ترسانة القرارت الدولية الصادرة، في حين يمارس النظام الحاكم أيضا برغماتيته المعهودة وتحت مسوغات باطلة للحيلولة دون الوقوع في فخ القوات الدولية، بل ويجدها فرصة سانحة في ظل توافر معطيات جديدة أولها الاتفاق وثانيها تصدع جبهة المقاومة العسكرية والشعبية في دارفور ليفسح لها المجال لاحداث المزيد من المناورة وصنع المبادرة والترتيب بشكل أفضل مما سبق لدرجة العمل على تمييع مشروع التحرير السياسي الكبير وموقعته في زاوية ضيقة تمثل أساسها ومرجعيتها «اتفاق أبوجا» وبالتالي افراغ مشروع التغيير والتحرير من محتواه ليتحول الأمر الى نقابة مطلبية او نقابات مطلبية.

و من هنا وبواقع تجربة الأشياء والمشاركة فيه، دخلت الاتفاقية لواقع الانفاذ والتنفيذ وفق شرعة الاتفاق الموقعة، ليجد فيها النظام الحاكم كارتا جديدا يمارس فيه «الغسيل» السياسي عبر الاتفاق وبوحشية وعلى جميع الأوجه، حركة موقعة وحركات رافضة، ومجتمع دارفوري منقسم بادارته وتحت نظمه واشرافه، ومجتمع دولي يعمل لصالح الانسانية في دارفور ودول جوار حاضرة بشكل نسبي في المشهد وصراعاته وفق الضرورة، وهو المشهد الذي منحه شرعنة جديدة لتنفيذ الانهيار الثاني للمشروع الحركي من اجل التحرير، وهو ما تبين جملة وتفصيلا في سابقات الأيام والشهور الماضية حيث الأولوية للنظام الحاكم في هذا المنعطف ليس تطبيق ما تم توقيعه بقدر ما ان الاولوية ضمن طروحاته هي تفكيك وتقزيم الشريك الجديد أو الشركاء الجدد مع جذب الآخرين اليه لنسف أطروحة التغيير المختلفة مع توجهاته الاستراتيجية، ويتم هذا بوعي وصمت كبيرين، في مقابل افتقار الشركاء الجدد لاطار مفاهيمي وسياسي يشكل ستارا للحيولة دون الوقوع والانهيار عبر الطرق المختلفة، فكان سهلا الاختراق، والصراع الداخلي / الداخلي بين مكونات حركة التغير الجديدة التي أتت، دون أن تتقدم الى الأمام مادامت المؤسسات غير موجودة وغير فاعلة ومفتقرة للمنهج والأطروحة والرؤية، مع محاصرتها وتجفيف مكامن قوتها، ليتم حالة الانهيار الثاني لمشروع التحرير داخليا والذي يقابله هزيمة شعب دارفور أيضا. وهي نتيجة تعود لفاعلية هندسة «المركز» المتحكم في السودان والقائمة على امتصاص المختلف وتطويعه ومن ثم جعله جسما تابعا، يملى عليه في كل شيء أفراد ومؤسسات رغم عدم وجودها ومن ثم يتم محوه نهائيا ليتناثر كالغبار، والأمثلة هنا كثيرة ومتكررة في الساحة السودانية خلال السنوات الحمر في السودان .

وهو ما يدفعنا جديا البحث عن خيارات ومنطلقات جديدة لفك الطوق من حالة الانهيار المستشرية والتي قد تحدث تداعيات جد خطيرة على جسد التحرير في السودان، وذلك لأجل مواصلة مشروع التحرير السياسي والفكري والاقتصادي القائم على تحقيق غايات شعوب الهامش السوداني في دائرة متسقة ومنسجمة تعمل على ردم الهوة وبلورة مصالحة جماهيرية مع المشروع الكبير.

شعب يبن ابادتين وتوبيخ!!

اذن، وفي ظل راهنية تضاريس هذا المشهد وحقائقه، وبعيدا عن اجترار التاريخ والتأريخ معا ، ومحاولات نظام الحكم في السودان للي حركة وعجلة التاريخ السوداني المتقدمة نحو التغيير والتحرير بشتى الطرق والسبل، المشروعة وغير المشروعة، وفي ظل الترهات العديدة التي لازمت هذه الثورة منذ انبثاقها، نجد أن «المركز» وصانع قراره تمكنا من الانتقال وتوظيف المستجدات مع مستحدثات جديدة وفرتها الاتفاقية وموقف معارضيها للقفز وتحقيق درجة رفيعة عبر نافذة جديدة، وهي استكمال الابادتين، الأولى تمت وتتم في اقليم دارفور وباستمرار تحت دواعي معارضي أبوجا دون أن تحقق شيئا لأبوجا مع الجهة التي وقعت غير تعيين كبير مساعدي رئيس الجمهورية ورئيس السلطة الانتقالية في اقليم دارفور الأخ مني آركو مناوي دون صلاحيات واضحة ومقننة، حيث يقوم بمهامه عمليا مستشار الرئيس السوداني الدكتور مجذوب الخليفة، مسؤول ملف مفاوضات دارفور والمختص في منح ومنع كل شيء هبات أو صكوكا للغفران والرحمة وسوف أفرد للأخير مساحات في مقبل الأيام منذ ملف المفاوضات الى يومنا هذا، وهنا أفتح قوسا عرضيا لواقعة حدثت ابان التعيين «حيث المتفق عليه أن يتم تعيين الأخ مني آركو مناوي كبيرا لمساعدي الرئيس قبل يوم أو يومين من وصوله الى الخرطوم، وهو ما لم يتم وقتها بناء على حسابات البرغماتي السياسي وبتعاون وثيق مع بعض أجهزة الحركة الحاضرة في وفد المقدمة » وهو موضوع كبير سوف أتناول حيثياته في وقت لاحق» والتي يمثلها وقتئذ أحد جنود الصف، حيث لولا الحملة التي اتخذناها وبلورتها وقذفتها في شباك المؤتمر الوطني لما عقد الرئيس السوداني ونائبه طه ومساعده الأول نافع علي نافع اجتماعا طارئا في ذات الساعة واليوم وزمان الأزمة في القصر الجمهوري ولمدة ساعتين لاتخاذ القرار والذي هو محل تردد كما اتضح وتم استيضاحه أكثر بعد التعيين من خلال أدب الممارسة، لولا ذلك لما تم تعينه، ناهيك عن تنفيذ الاتفاق، ليستدعى مستشار الرئيس السوداني السيد مجذوب الخليفه من لدن أطراف أجهزة حزبه ومؤسساته ويتم استجوابه وتوبيخه لعدم حنكة اللعبة»، وهو موقف حددنا سياقاته وأخيرا تم انتهاجه من طرف بعض العناصر الحركية داخل الخرطوم، ليتأكد صحة ما قلناه لهم فيما بعد بأن ادارة الأزمة مع المؤتمر الوطني يجب أن تتم هكذا ومنذ البدء، لولا تقاعس وترهل بعض القيادات الحركية وأجندتها السطحية التي عبثت بها أيدي المؤتمر الوطني والتي وزعتها الى كانتونات وسلطات خردة كما اتضح فيما بعد، بخذلان لشهداء الثورة أمثال جدو ساغور رئيس هئية الأركان للحركة وعبدالله أبكر مؤسس الثورة ونورالدين الياس وأخرين كثر.....!!، لتتم عبر هذه السوداوية الابادة السياسية للحركة داخل الخرطوم وليبحث الكل عن مواقع ومناصب «الدم» دون نذر من دم، كاستحقاقات لدارفور، وهو استحقاق.....!! وتلك خدعة أيما خدعة بين لوبيات الترف.

لأخلص مبتدئا في المحصلة ان دواعي التغيير الحركي التحرري يجب أن يتم ويقع وفق واقع مجريات الأحداث لا محالة، كما يجب ان نبين أن آلية التغيير من الهامش السوداني غير ذي فاعلية وجدوي عميقة ،فشل فيها الدارفوريون والجنوبيون وما أنتجه الدارفوريون وما زالوا ينتجونه من فعل ثوري يصب في أغلبه لصالح المركز أو بعبارة أوضح يصب في مصالح السلطة الحاكمة بطريقة أو أخرى، فرادى وجماعات وحركات واقليم وانسان الا ما ندر وهي خارطة معقدة، وهو الأمر الذي يتطلب صياغة مواءمة وجديدة مع المشهد لمعالجة الاختلال الداخلي وحالات الانهيار الحركي أولا ومن ثم التوجه لما هو استراتيجي، أعني العمق والمحرك الدينمو وبأليات مستحدثة، والتأكيد على أن الاتفاقات الماضية والقادمة ليست هدفا ومرجعية للمشروع بقدر ماهي مداخل للاستكمال والوصول للدولة السودانية الثالثة، مادامت الدولة الاستعمارية الخارجية وهي الأولى فشلت والثانية القائمة على الاستعمار الداخلي أيضا فشلت، وهي مساحة تاريخية جيدة للتفكير في الدولة السودانية الثالثة وهي دولة التحرير الكامل من منطلقات السودان القديم وبوحدة وعقد جديدين لولايات سودانية متحدة قائمة على حقيقة الواقع والتاريخ والجغرافيا.

---

* قيادي بحركة جيش تحرير السودان، المتحدث الرسمي لرئاسة الحركة

أخطأ بوش في فهمنا فلا يجوز ان نخطئ في فهمه

عوني قلمجي*

■ انتهت الضجة التي اثيرت حول لجنة بيكر ـ هاملتون، فآمال الباحثين عن النجاة، جراء سياسات بوش الكارثية وحربه المدمرة في العراق، تحطمت وتناثرت على اعتاب توصيات اللجنة العتيدة، فانهاء الاحتلال وايجاد مخرج مشرف لامريكا بالانسحاب، سواء دفعة واحدة أو وفق جدول زمني، تركته اللجنة العتيدة للظروف، وباقي توصياتها زادت النار اشتعالا، حيث قدمت لبوش الدعم والمشورة للسير قدما في مشروع الاحتلال وانجاحه. وعلل حكماؤها العشرة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي بان الهزيمة مرفوضة لانها تمس بسمعة امريكا وهيبتها ومكانتها امام العالم.

وهكذا الحال حول مقترحات وزارتي الدفاع والخارجية والامن القومي والقادة العسكريين سواء من هم في الميدان او خارجه، وكلها ترفض الهزيمة لذات السبب وتؤيد بوش في سعيه لاكمال المهمة، ولكن عبر ستراتيجية جديدة تقلب الاوضاع راسا على عقب. هذا ما بشرنا به السيناتور الجمهوري جون ماكاين، المرشح لخوض سباق الرئاسة الأمريكية عام 2008، حيث اختزل تلك المقترحات وهي لا تزال في ادراج المكاتب بالقول : ان الولايات المتحدة بصدد الخسارة. نحن لم نخسر بعد. وهذا هو الوقت الذي يتعين فيه أن نبدأ بوضع استراتيجية كفيلة بقلب الأوضاع وتعزيز عدد القوات الأمريكية بشكل إجمالي، بين 30 إلى 40 ألف جندي إضافي، لضمان استقرار بغداد ومحيطها. اما وزير الدفاع الجديد روبرت غيتس، الذي توهم البعض، بانه من المدرسة البرغماتية والواقعية، وانه سيعمل على انسحاب مشرف، ذهب بنفس الاتجاه، واعتبر هزيمة امريكا كارثة حقيقية تلاحق الشعب الامريكي وتضعف مصداقية ادارته وتعرضه للخطر على مدى عقود قادمة. ولتجنب الهزيمة قام بزيارة سرية الى بغداد للبحث مع القادة الميدانيين حول زيادة عدد القوات ووضع خطة وآلية للتعاون والتنسيق بين قوات الاحتلال وقوات الحكومة، استعدادا للجولات القتالية القادمة ضد المقاومة العراقية وانهاء سيطرتها على المدن العراقية الواحدة تلو الاخرى وخاصة العاصمة بغداد.

والشيء ذاته توصل اليه الديمقراطيون، بعد ان اوهموا الشعب الامريكي بانهم يسعون لسحب القوات الامريكية من العراق. فشيخهم إيك سكيلتن الذي سيرأس لجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب الأمريكي، قالها بعبارات خجولة : الجيش الأمريكي ينزف.أعتقد علينا الضغط لوقف النزف من خلال تعزيز القوات، ويجب ان يكون هذا التوجه جزءا رئيسيا من عملنا اليومي. اما الكابتن بوش والذي بيده، الحل والربط، فموقفه ثابت لا يتغير قوامه العناد والمكابرة، ولا يريد ان يستوعب درس المقاومة العراقية. ففي الوقت الذي اعترف فيه بان امريكا المنتصرة اصبحت لا منتصرة ولا مهزومة وان المعركة ليس كما تخيلها سهلة وقصيرة، فانه اكد على الملأ اصراره على تحقيق النصر وليس في قاموسه كلمة انسحاب وتعهد بان الولايات المتحدة لن تفشل ولن تتراجع ولن تصبح انعزالية وطالب الامريكيين الاستعداد لتضحيات اضافية في عراق عام 2007. واذا اضفنا الى موقف بوش مقولة الديمقراطيين بانهم ارادوا هزيمة بوش وليس هزيمة امريكا، فهذا يعني بان موقف الحزبين قد اتضح لجهة اكمال المهمة وان ستراتيجية بوش المرتقبة هي ستراتيجية الحزب الديمقراطي بنفس القدر والمسؤولية، ولعل ذلك يقنع ما تبقى من اصحاب مشاريع انهاء الاحتلال عبر الوسائل السلمية والمراهنات الخائبة، كي يستعدوا كما تستعد المقاومة العراقية لمواجهة الاستراتيجية الجديدة، والتي بسبب المهام والاهداف التي رسمتها، ستكون اكثر دموية ووحشية من سابقاتها وستشهد ساحة الصراع معارك طاحنة بين المقاومة العراقية وقوات الاحتلال لم تشهدها من قبل. وهنا بيت القصيد من هذا الاستطراد.

ترى هل هناك احتمال ما لأن يكون الوضع القادم غير ذلك؟ لنغير الاتجاه قليلا وندخل في مجال آخر ذي صلة وثيقة للوقوف على الحقيقة، وفي هذا الصدد فان نجاح مشروع الاحتلال وفي اي بلد حدث، لابد وان يستند على ركيزتين اساسيتين، الاولى عسكرية والاخرى سياسية. والعلاقة بينهما علاقة عكسية، فكلما قوي جانب قل الاعتماد على الجانب الاخر، فما الذي حدث في هذه المعادلة في الظرف الراهن؟

المصالحة الوطنية التي هي عنوان العملية السياسية قد ماتت وانتهى امرها. فمؤتمرها الذي انتهت اعماله يوم الاحد الماضي. لم يفشل في ضم القوى السياسية الوطنية المناهضة للاحتلال الى العملية السياسية، وانما فشل ايضا في الحفاظ على وحدة الاطراف المنظوية تحت لوائها، لا لسبب وطني، وانما بسبب الخلافات حول المكاسب وتقاسم الغنائم، فالتيار الصدري وكتلة الحوار التي يرأسها صالح المطلك قاطعت المؤتمر، في حين انسحبت منه كتلة اياد علاوي بعد عدة دقائق من بدء اعماله وتحفظ عليه حزب الفضيلة. يضاف الى ذلك فان القرارات والتوصيات التي خرج بها المؤتمر تدعو للسخرية والرثاء، فهي ليست سوى اكاذيب مفضوحة. مثل حل الميليشيات المسلحة وانهاء المحاصصة على أساس طائفي واعادة النظر بالفيدرالية، وكان اكبر هذه الاكاذيب افتضاحا، هو العمل على رحيل قوات الاحتلال باسرع ما يمكن، في حين ان نوري المالكي وجميع اعضاء الحكومة يصيبهم الهلع والذعر اذا صدرت اشاعة حول احتمال انسحاب بوش من العراق. وامام انهيار الركيزة السياسية، فان الاستراتيجية الجديدة ستعتمد لا محال على الحل العسكري وباعلى اشكاله وصوره واساليبه. وان بدايته على الارجح، هو اعادة احتلال بغداد وانتزاعها من يد المقاومة العراقية.

اذا اخذنا عينة من سلوك بوش في الاونة الاخيرة، وخاصة في مؤتمره الصحافي في البيت، فانه بدا مرتبكا ومهزوزا ومترددا في كلماته حول تحقيق النصر او اكمال المهمة. وهذا من شأنه ان يدفع بوش لاستجداء اي معونة او مساعدة من دول الجوار وعلى وجه الخصوص سورية وايران كي يتجنب الفشل هذه المرة. ولذلك اوكل الى سفيره توني بلير هذه المهمة، فهو الاخر يسعى لضمان النصر ليستر به عورته قبل رحيله النهائي عن عالم السياسة، وقد جاب السفير الهمام بلدان المنطقة لهذا الغرض وفي جيبه وصية بيكر ـ هاملتون، ولندع ما يقال عن المهمة الاخرى المعاكسة لتشكيل حلف ضد ايران وسورية لايجاد حلول فيما يتعلق بالمشاكل بين العرب والكيان الصهيوني.

وفي هذا الصدد لا نستبعد اشتراك ايران فعليا في القتال الى جانب قوات «الشيطان الاكبر» ضد المقاومة العراقية، تحت عباءة قوات بدر او غيرها من ميليشيات الحكومة المسلحة، مقابل صفقة جديدة تعترف فيها امريكا بالدور الاقليمي لايران في المنطقة والسكوت النهائي عن مشروعها النووي. وفي هذا الاطار يدخل ايضا العرض الذي قدمه مسعود البرزاني قبل اكثر من اسبوع، الى حكومة المالكي بارسال الالاف من البشمركة الى بغداد لحمايتها من المقاومة. ولم يعد سرا ان هذا الامر قد ناقشه بوش مع المالكي والحكيم تباعا وناقشه ايضا جلال الطالباني في وقت سابق مع ايران. وناقشه اخيرا مبعوثون عراقيون في دمشق.

وفي كل الاحوال وبصرف النظر عن طريقة ادارة مشروع الاحتلال عسكريا او سياسيا او كليهما، او مشاركة ايران و سوريا وغيرهما، فان مأزق بوش والتغلب عليه لا يمر عبر هذا الطريق، فكل ذلك تم تجريبه على مدى سنين الاحتلال وكانت النتائج كارثية على القوات الامريكية. فجبهة المقاومة العراقية، على الرغم من، امكاناتها المتواضعة قياسا بامكانات امريكا، فانها تتقدم نحو التحرير في حين تتراجع قوات الاحتلال نحو الهزيمة. ومن الطريف ان تثبت الوقائع تزامن ارتفاع الخسائر في صفوف قوات الاحتلال مع كل استراتيجية امريكية جديدة.

دعونا مما يروجه بعض ممن يدعون التحدث باسم المقاومة، ويبشرون بانهيار امريكا ورحيلها اليوم وليس غدا، فالمقاومة العراقية بريئة مما يدعون، فهي تجهد نفسها مثلما تجهد امريكا نفسها لتقوية مواقعها العسكرية والسياسية وتستنجد بحلفائها القريب منهم والبعيد، حيث يتصرف قادة المقاومة بمسؤولية عالية ويعملون دون كلل لمواجهة التحديات القادمة لادراكهم بان المحتل لازالت بيده اسباب القوة والصمود فترة اطول، وهم سبقوا بوش بالتوصل الى قناعة بان المعركة طويلة والتضحيات للفوز بها جسيمة، وان امامهم مهاما على درجة كبيرة من الاهمية ويعملون ليل نهار من اجل انجازها، وفي مقدمتها الانتقال بالعلاقة بينها وبين جماهيرها الواسعة خطوات متقدمة اكثر، والوصول من خلالها الى توسيع جبهة القوى المعادية للاحتلال، لتكون الاطار الجامع الذي يعزز الموقف الوطني ويقويه، وترسخ القاعدة التي تستند اليها عملية التحرير وبناء العراق الموحد على اساس ديمقراطي تعددي. وهي في هذا المجال تحرز نجاحات مهمة، خاصة وان القوى المعادية للاحتلال والتي راهنت على الحل السياسي، بدأت بالاقتراب اكثر فاكثر من فكر المقاومة، وايقنت بان لا طريق لدحر الاحتلال وتحرير العراق الا بالقوة المسلحة. بالمقابل فالمقاومة، وهذا ليس سرا، قد وضعت الاسس العسكرية والسياسية بما يتناسب وحجم التحديات القادمة، لتكون قادرة على احباط ودحر استراتيجية بوش الجديدة، ومن ضمنها تكثيف الجهود من اجل تحقيق وحدة فصائل المقاومة العراقية تحت قيادة واحدة وبرنامج سياسي وطني شامل، والاهم من ذلك ان انتصاراتها العظيمة والكبيرة لم تنسها قوة العدو وجبروته وما لديه من امكانات مختلفة واصراره على انجاح مشروعه، الامر الذي يمنعه من التسليم بالهزيمة او يدفعه الى الانسحاب المبكر.

يقال عن حق بان الاوطان حينما تتعرض للخطر تكون المسؤولية جماعية ولا تتعلق بجهة واحدة او عدة جهات مهما بلغت من قوة ومهما علا شانها. ولا يغير من هذه الحقيقة ادراك المقاومة العراقية لما يدور حولها وانها تسير بالاتجاه الصحيح، ومن موقع هذه المسؤولية الجماعية نقول ونذكر، ومن دون ان نطيل اكثر، نعم امريكا في مأزق حرج جدا وان الخروج منه اصعب، لكنه لم يوصل بعد قوات الاحتلال الى الانهيار. واذا اخطأت امريكا على لسان رئيسها في فهمنا وادراكها بان معركتها قاسية وطويلة وتضحياتها كبيرة، فان علينا ان لا نخطئ في فهمها وان ننطلق من نفس رؤيا عدونا وان أتت متاخرة وان لا نستهين بقوة المحتل حتى اذا وصل الى حافة الانهيار. ولنا في تجربة المقاومة الفيتنامية درسا بليغا، فهي لم تحتفل ساعة توقيع اتفاق الهزيمة، بل شنت 245 هجوما ضد القوات الامريكية وهو اعلى رقم في تاريخ عملياتها العسكرية.

لانشك بان انتصار المقاومة حتمي مهما طال الزمن وامتدت بهذا الانتصار السنين. فليس هناك من شعب قاوم الاحتلال بارادة وعزيمة واصرار كما هو حال المقاومة العراقية الا وكان النصر حليفه. لكن مواصلة السير بالاتجاه الصحيح ستختزل المسافة الزمنية وتقلل من حجم الخسائر والمعاناة.وهذا ليس بالامر الهين.

---

* كاتب من العراق

صدام حسين ضحية المستحيل المشروع!

د.ابراهيم أبراش*

■ اعدام صدام حسين صبيحة عيد الأضحى لم يكن تنفيذا لحكم قضائي بل تبليغا لرسالة، حيث كان من الممكن أن يُعدم بعد حين ما دام الحكم قد صدر، والحكم قد صدر في حقيقة الأمر قبل ذلك بسنوات وتأكد في اليوم الذي تجرأ وأطلق صواريخ على اسرائيل. مَن أعدم صدام يوم العيد يريد ان يقول أن لا محرمات ولا مقدسات تعلو فوق المقدسات الأمريكية ومقدساتها هي مصالحها، ومَن أعدم صدام يريد أن يعمق العداء بين طوائف الشعب العراقي، ومن أعدم صدام يريد أن يقول بأن أمريكا ما زالت قوية وهي صاحبة القرار في العراق.

لم يكن صدام حسين زعيما ملائكيا ولا ديمقراطيا، كان زعيما بجدارة ولكن حسب الثقافة العربية،زعيما لبلد عربي وفي مرحلة عربية شهدت ثقافة ومتغيرات وأحداثا لم يكن يعرف فيها: الحق من الباطل ،الانجازات من النكسات، النصر من الهزيمة، مرحلة تداخل فيها الدين مع السياسة مع الاقتصاد ،الماضي مع الحاضر، الوطني مع القومي مع الدولي، الطائفية مع العرقية مع الديمقراطية، مرحلة الطموحات الكبيرة والشعارات الكبيرة والقرارات الكبيرة و... الانجازات القليلة. ولأن صدام حسين حكم العراق في زمن المد القومي والمد الاشتراكي وعاصر المد الأصولي وحاول أن يكون زعيما قوميا واشتراكيا ودينيا، ولأن صدام حسين عاصر الثنائية القطبية وراهن على المعسكر الاشتراكي، وعاصر المرحلة الضبابية قبل انهيار المعسكر الاشتراكي وحاول اللعب على المتناقضات، ثم عاصر الأحادية القطبية، فكان أن دفع ثمن المرحلتين السابقتين.

لا نريد أن نبيض صفحة صدام حسين بالتهوين من حجم العنف الذي مارسه ضد بعض مكونات شعبه، الأكراد شعب عريق وكان من حقهم أن يعبروا عن ثقافتهم وكينونتهم وهويتهم، الشيعة في العراق هم عراقيون كالسنة وكان من حقهم المشاركة بالسلطة بعدالة،ان لم تكن عدالة صناديق الانتخابات فعدالة العقد الاجتماعي القائم على التراضي والتوافق، والكويت دولة عربية مستقلة ولا يجوز الغاء وجودها بذريعة الوحدة العربية أو تصحيح خطأ تاريخي فيما كل الجغرافية السياسية للعالم العربي مؤسسة على أخطاء تاريخية. ولكن هل كان الاحتلال الأمريكي للعراق والتدمير المنهج لهذا البلد،تدمير بنيته التحتية ونسيجه الاجتماعي ووحدته الثقافية وتراثه التاريخي وتغذية الحرب الأهلية ،ثم نشر القواعد العسكرية بالخليج العربي، ودفع دول المنطقة لتنافس محموم على التسلح.. الخ، هل كان كل ذلك عطفا على شعب العراق ودفاعا عنه في مواجهة حاكم طاغية، أو عطفا على شعب الكويت؟

الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها لم يحتلوا العراق ويفعلوا ما فعلوه للأسباب المشار اليها أعلاه ولكنهم وظفوا هذه الممارسات للنظام العراقي لينفذوا أهدافا ويحافظوا على مصالح استراتيجية كان صدام حسين يشتغل على ما هو نقيضها، أستُهدف عراق صدام حسين لأنه كان يسعى لتحقيق أهداف هي أقرب للمستحيل ولكن مجرد المحاولة كانت تزعج الغرب، فالمحاولة قد تنجح ان لم يكن مع صدام فمع غيره وان لم تنجح فستبقى حلما يلهم الشعوب العربية، هذا (المستحيل المشروع) ان صح التعبير له بعد أو شق وطني وبعد قومي، أما الشق الوطني فهو سعي صدام حسين للحفاظ على وحدة العراق في دولة واحدة قوية ومتحضرة، وهذا المسعى يشبه المستحيل لمن يعرف تاريخ العراق سواء القديم أو تاريخه الحديث منذ الاحتلال البريطاني حتى مجيء صدام للحكم، وقد نجح صدام ولو بالعنف وارهاب الدولة من تحقيق هذا الهدف بشكل ما، مما أزعج جيرانه وخصوصا ايران وأزعج الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة. أما البعد الثاني فهو البعد القومي، حيث سعى صدام لتحقيق حلم كانت تتوق اليه الشعوب العربية وهو الوحدة العربية ونصرة الشعب الفلسطيني، وعمل صدام من اجل ذلك بطريقته الخاصة والمتفردة،فيما هذان الهدفان لن يكتب لهما النجاح الا ضمن استراتيجية عمل عربية مشتركة.

سعي صدام حسين لتحقيق هذه الأهداف في زمن الهيمنة الأمريكية ونظام دولي يتسم بالأحادية القطبية، وجيران غير متعاونين ان لم يكن معارضين ومعادين، كان يجعل منها أهدافا مستحيلة بالرغم من مشروعيتها، ولكن حتى المحاولة كانت مرفوضة أمريكيا واسرائيليا لأنها ستذكر العراقيين بأنهم شعب واحد وتذكر العرب بأنهم أمة واحدة، وكان لا بد لهذه التجربة أن تفشل أو تضرب وحتى يكون ذلك لا بد من ذرائع فكان خطاب حقوق الانسان وأسلحة الدمار الشامل وتهديد الجيران.. الخ.

انتهى صدام الشخص والرئيس بطريقة تسيء لقاتليه ولكن فيها شموخ وكرامة له ولمن يؤمن بالفكرة (المستحيل المشروع) التي كان يسعى اليها.مَن أعدم صدام بالطريقة والتاريخ المختارين بطريقة مستفزة ـ انما كان يريد أن يؤجج ويؤبد الخلافات الطائفية،والأمر متروك لشعب العراق ليشق طريقه مستفيدا من أخطاء الماضي وخطايا الحاضر.

---

* كاتب من فلسطين

Ibrahem_ibrach@hotmail.com